

الفلسفة الاجتماعية

عند علي بن أبي طالب

أبحق يدعى علي بن أبي طالب أول مفكري العرب ؟ وما معنى أول مفكري العرب ؟
أهو أولهم رتبة ومقاماً وأعلاماً عرساً ؟ أم هو أول من فكر من العرب بالحكم والفلسفة الشعبية
العملية ؟ أم هو أول من وصلتنا أفكاره وأقواله الحكيمة ؟
زهير مفكر كبير وحكيم وهو سابق في الزمان لعلي .
وسجبان وائل خطيب كبير وقس بن ساعدة مضر بالأمثال بالفصاحة مفكران أيضاً .
أحدهما سبق علياً بالعصر والآخر عاصره .

ان اتساع عقل علي بن أبي طالب ونبوغه غير العادي ومقدرته على تحليل عوامل النفس
واختباراته في أنحاء حياة الانسان ، وتدينه العملي الذي جعله بذوّب حكمة القرآن ويقدمها
للشعب عصيراً عذباً سهل القبول ، إن هذه الصفات التي تسطع في حكم الإمام هي التي بوّأت
المركز الأول بين مفكري العرب قاطبة .

ربي في كنف الرسول الأعظم ، فاستمد من خلقه العظيم خالقاً ، ومن إيمانه الكبير وإيماناً
واغتذى من أنوار نبوته شعاعاً يسدد سبيله ويهدي قلبه وينير فكره .

وأحاطت به مشاكل الحياة الصعبة ، فواجهها بقلب ثابت الايمان ، وعزيمة لا تعرف الخور
وروجد في عصر كانت له ظاهرة اجتماعية خاصة به دون عصور الخلفاء من قبله ، فعصر أبي بكر
كان هو العصر الذي نشأت فيه الدولة الاسلامية ، وعصر عمر كان هو العصر الذي تم فيه
إنشائها ، وعصر عثمان كان هو العصر الذي تكون فيه المجتمع الاسلامي بعد نشأة الدولة
الجديدة ، أما عصر علي فكان عصرأ عجيباً بين ما تقدم وجاء في أعقابها ، لأنه كان بناء جديداً
في سبيل السلام .

— ولم يكن بناءً متداعياً فكله هدم وانهار ، ولا بناء قائماً فكله رسوخ واستقرار —
وشعر الإمام انه نجس حقه وهو يرى أنه أجدر الخلفاء في تولية الخلافة ، وحرّم تمثيل دوره
السياسي ، ومع ما ابتلي به الإمام من الاصلاح والمشاكل الكثيرة فقد أخرج للناس فلسفة

أخلاقية اجتماعية هي ابنة التجارب وولادة العراك الطويل ، ولـم يخرج الألم نوابغ حملوا مشعل النور وخلق مفكرين ، وتاريخ الانسانية الشامل مليء بالشواهد .
ملا الدين الاسلامي الجديد قلباً لم ينازعه فيه منازع من عقيدة سابقة ، فبحق ما يقال ان علياً كان المسلم الخالص على سجيته المثلى او ان الدين الجديد لم يعرف قط أصدق إسلاماً منه ولا أعمق نفاذاً فيه .

كان المسلم حق المسلم في عبادته وفي علمه وفي عمله وفي قلبه وعقله ، وأحسن الاسلام علماً وفقهاً كما أحسنه عبادة وعملاً ، إلا أن المزية التي امتاز بها علي بين معاصريه من فقهاء الاسلام انه جعل الدين موضوعاً من موضوعات التفكير والتأمل ، وإذا عرف في عصره أناس فقهوا في الدين ليصححوا عباداته ، فإن الامام أمعن فيه ليعفوس في أعماقه على الحقيقة العلمية ، او الحقيقة الفلسفية كما نسميها في هذه الأيام .

ويصح أن يقال إن علياً أبو علم الكلام في الاسلام ، لأن المتكلمين أقاموا مذاهبهم على أساسه كما قال ابن ابي الحديد في شرح نهج البلاغة ، فواصل بن عطاء كبيرهم تلميذ أبي هاشم عبد الله بن محمد بن الحنفية ، وابو هاشم تلميذ أبيه . وأبو تلميذ الامام (ع) . وأما الأشعرية فقد استمدوا علومهم عن علي بن ابي البشر الأشعري ، وهكذا إلى عبد الله بن عباس تلميذ الامام وقد قيل لابن عباس : أين علمك من علم ابن عمك؟ فقال : كنت نسبة قطرة من المطر إلى البحر المحيط وقد جمع نهج البلاغة غاذج شتى من الكلمات التي تنسب إليه ، ويصح ان نحسب أصلاً للعلم الإلهي أو لأسرار التصوف في صدر الاسلام قبل اشتغال المسلمين بفلسفة البيوفات وحكمة الأمم الأجنبية . وما تعاليمه إلا مستوحاة من القرآن الكريم ، فكان يتلمذ له ويستمد منه . وكانت نظراته إلى الخلق والحائق نظرة قرآنية يبتكر فيها ما شاء ، ابتكار التلميذ في الحكاية عن الأستاذ .

ونحن لا نستغرب ابتداء هذا النمط من النظر الفلسفي على نحو من الآتي في عصر الامام لأنه كان عهداً ثبتت فيه أصول الفرق الاسلامية جميعاً من الخوارج والشيعة والقائلين بالرجعة وتناسخ الأرواح والمجتهدين في قراءة القرآن وتفسيره على شتى المذاهب .
سبر الإمام غور النفس الانسانية ، ودرس أخلاق الناس ونفذ إلى أعماقهم ، فكانت له فيهم آراء صائبة ونظرات جد قربية من الواقع ، ولئن جاز لنا أن نسمي مجموع هذه الآراء والمواعظ والحكم فلسفة ، فلنحاول أن نبهر مظاهرها ونشير إلى العوامل التي ساعدت على تكوينها .
وربما تشكك الباحث في نسبة بعضها إلى الامام لغلبة الصبغة الفلسفية عليها وامتزاجها

بالآراء والمصطلحات التي اقتبست بعد ذلك من ترجمة الكتب الاغريقية والأعجمية ، ولا سيما الكلام على الأضداد والطبائع والمدم والحدرد والصفات والموصوفات ، ولكن الذي يقرأه الباحث ولا يشك في نسبه إليه رأي القائلين بسبق الامام في مضمار علم الكلام واعتراف المعترفين له بالأستاذية الرشيدة . وهو على جملة خير ما يعرف المؤمن ربه وينزه الخالق في كماله ومن أمثله قوله : « الحمد لله المعروف من غير رؤية ، الخالق من غير منصبه ، خلق الخلائق بقدرته ، واستعبد الأرباب بعزته ، وساد العظماء بجوده ، وقد علم السرائر وخبر الغمائر . له الاحاطة بكل شيء والغلبة لكل شيء . والقوة على كل شيء . » .

أما القضاء والفقهاء المشهور عنه أنه كان أفضى اهل زمانه واعلمهم بالفقهاء والشريعة . وكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقول كلما استعظم مسألة من مسائل القضاء العويصة : « قضية ولا أبا حسن لها . » .

وفي هذه الاجابات دليل على الذكاء وسرعة البديهة ، فضلاً عن الدلالة الظاهرة على العلم بالمواريث والحساب التي اشتهر بها الإمام علي عليه السلام . وكذلك يصح أن يقال في علم النحو انه لم يكن أحد أوفر سهما في إنشاء هذا العلم من سهمه . وهذا الطراز من الحكم التي رويت للإمام لا يفوقه طراز في حكمة السلوك على أسلوب الأمثال السائرة . وقد قال النبي الأعظم : « علماء أمي كأنبياء بني اسرائيل » ، فهذا الحديث الشريف أصدق ما يكون على الإمام علي في حكمته التي تقارن بحكم ارائك الأنبياء . فلننظر إلى بعض أقواله وإلى ما فيها من جمال : « من يعط باليد القصيرة يعط باليد الطويلة » وقوله : « المرء مخبوء تحت لسانه » أو قوله : « من لان عوده كثفت أغصانه » إلى أشباه هذه التعبيرات الحسان . وبعض أقواله ينضح بدلائل شخصية ، فيلبس معانيه لباساً من خوالج نفسه واحداث زمانه : « صواب الرأي بالدول ، يقبل بإقبالها ويذهب بنهاجها » أو كما قال : « ما أكثر العبر وأقل الاعتبار » . وله عدا هذه الحكم الاجتماعية التي تلونت بألوان نفسه أو ألوان زمانه حكم كثيرة تنفذ إلى كل سامع يفطن لها كقوله : « افضل الأعمال ما أكرهت نفسك عليه » أو قوله : « إذا كثرت القدرة قلت الشهوة » .

فكل حكمة من هذه الحكم تشهد له بالملكة الموهوبة ، فهو بلا شك من الذين أوتوا الحكمة وفصل الخطاب . وقد أخطأ المؤرخ الإنجليزي موير Moyer حين قال إن علياً حكيم كسليمان وهو مثله حكمته لغيره ، يعني : انه ينصح الناس ولا ينتفع بالنصيحة . ولا شك أن علياً كان من العاملين بما يقول ، لأن إخفاقه في خلافته كان من استعصاء الداء لا من صحة الدواء ، والطبيب لا يتدح في علمه أنه قد اعياها علاج نفسه بطبه . آلمه أن يرى الناس يؤمنون بالأباطيل

وينخدعون بشعوذة المنجمين ، فقال : « إياكم وتعلم النجوم فإنها تدعو إلى الكهانة والمنجم كالكاهن ، والكاهن كالساحر ، والساحر كالكافر والكافر في النار .. يروا على اسم الله » . وكان المال في نظر أبناء عصره كل شيء . فهو عندهم مصدر الفضيلة ، لذلك بالغوا في تقديمه ، فالواحد منهم يرضى أن يفقد أعز أهله ولا يفقد شيئاً من ماله : « ينام الرجل على الشكل ولا ينام على الحرب » . وآلمه كذلك أن يراهم يفقدون كل معنى للفضيلة ، فحددها لهم بقوله : « اليمين والشمال مضلة ، والطريق الوسطي هي الجادة » .

وقبلة نهج البلاغة إنما هو في الناحية الاجتماعية فهو يصور عصره في الدرجة الأولى ، ثم يبدي في السياسة والحرب آراء صائبة ، وإذا علمنا أن الإمام علياً قد ضرب من العلم بسهم وافر ، لم نستكثر هذه الآراء الصائبة عليه ، بل لعلها أقل مما يجب أن يصلنا عنه . يشكو الإمام من أتباعه ومن أهل الكوفة فإنهم كثيرون الدعوى فإذا جدت الجد فشلوا وعجزوا عن كل شيء . « وإنك لتعجب أنه كان يرى اتباع معاوية خيراً من أتباعه حيث قال : « ليت لي بكل عشرة منكم واحداً من أهل الشام » . وكثيراً ما كان يعجب الإمام كيف أن اتباع معاوية يجتمعون على الباطل ، وأن أتباعه يتفرقون عن الحق » .

وله آراء في الحرب يحمدها ولا عجب فهو ابن مجدها ، فكان لا يهاب قرناً من الأقران بالغاً ما بلغ . قال في الخطبة التي قرع بها أهل العراق : « أما بعد فإن الجهاد باب من أبواب الجنة » . « ضرورة الحرب للأمة الذي تدور الحرب في بلاده يخرج مهزوماً أو منهوكاً ذليلاً . إن القائد العظيم لا يستطيع أن ينتصر ما لم يكن هناك جيش يأتمر بأمره » . كما وأنه صور الدنيا بقوله : « دار بالبلاء محفوفة وبالقدر معروفة » ثم « دار أولها عناء ، وآخرها فناء ، في حلالها حساب وفي حرامها عقاب » وذلك كله لأنه رأى أهل عصره يفرقون في لجة من الفساد الخلقى ورأى الكذب صنعتهم والشقاق دأبهم ، فصغرت في عينه الحياة ورغب عنها .

ولم ينس كبير الإنسان وعجرفته فقال : « ما لابن آدم والفخر أوله نطفة وآخره جيفة » . وآلمه أن يرى هذا الإنسان سرعان ما ينسى الصداقة ويجهدها ، فرسم للناس خطة الصداقة الحقة : « لا يكون الصديق صديقاً حتى يحفظ أخاه في ثلاث : في نكيبته وغيبته ووفاته » ولم تفته أيضاً بعض الأقوال في حكمة السلوك ، فكانت من الأمثال النائرة كقوله : « ثمرة التفريط الندامة » ، « آلة الرياسة سعة الصدر » ، « لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق » . أما قول الإمام : « خاطبوا الناس على قدر عقولهم » فيسكننا أن نعتبره في أعلى طبقات الحكم الاجتماعية .

لم يدع الإمام الناس حيارى في أمرهم بعد أن أكد فسادهم وبين سوء أخلاقهم وأوضح

معاييرهم وإنما عمد إلى وضع أسس وقواعد تضمن للفرد حياة خيرة صالحة .
فالإمام يوصي بالصبر في بعض المواقف لأن « الصبر شجاعة » ويوصي بالحلم والأناة والتعقل
والرزانة « الحلم والأناة توأمان نتيجهما علو الهمة » .

وكذلك فهو يعتبر القناعة أثمن الكنوز والحلق الحسن أجمل نعم : « القناعة كنز لا يفنى .
كفى بالقناعة ملكاً وبحسن الحلق نعمياً » . وكذلك فهو يوصي بالتواضع وبالصدافة لأنها شفاء
النفس . ولا ينسى أن يعلم الناس درساً في الانسانية فيقول : « عاتب أخاك بالاحسان اليه ،
واردد شره بالانعام عليه » .

وخلاصة رأي الإمام في المرأة أنها : « شر كلها وشر ما فيها أنه لا بد منها » . وكان يرى
لها فضائل خاصة تليق بها غير الفضائل التي تليق بالرجل وتحمد منه « فخير خصال النساء شرار
خصال الرجال : الزهو والجبن والبخل . فإذا كانت المرأة مزهوة لم تكن من نفسها ، وإذا
كانت بخيلة حفظت مالها ومال بعلمها ، وإذا كانت جبانة فرقت من كل شيء يعرض لها » .

والإمام صائر إلى رأيه هذا - كما يقول العقاد - حق كلتا طريقتيه ، وهما طريق الحكيم
الذي ينظر اليها على سنة الحكمة القديمة ، وطريق العابد الذي ينظر اليها على سنة العبادة في
جميع العصور . ومنها التلطف بالمرأة والصفح عن عدوانها ، فما انتقم قط من امرأة لأنها أساءت
اليه ، ولا غفل قط عن الوصية بها والاشفاق عليها : « لا تهيجوا النساء بأذى ، وإت شتمن
أعراضكم وسبين أمراءكم ، لأنهن ضعيفات القوى والأنفس والعقول » .

إلا أنه كان يرى أن امرأة تغني الانسان عن سائر النساء ، فلم يعرف له هوى خاص بامرأة
غير الهوى الذي اختص به فاطمة عليها السلام . وعلى الجملة يمكن أن يقال : إن آراء الإمام
علي في المرأة هي خلاصة الحكمة القديمة كلها في شأن النساء .

فالنساء شر لا بد منه باتفاق أقوال المتقدمين جميعهم ، سواء منهم حكماء الهند واليونان ،
أو الحكماء الذين نظروا اليها بنظر الدين من أبناء إسرائيل ، وآباء الكنيسة المسيحية ، وأئمة
الإسلام .

وحملته على المرأة شديدة ، وسبب ذلك واضح ايضاً . إن عائشة زوج الرسول قد خلقت
له مشاكل كثار ، وترجع عداوة عائشة وعلي إلى أيام الرسول في حديث الافك كما يقولون ،
وان الإمام علياً أشار على الرسول بطلاقها . وأنها صرفت أمر الصلاة بالمسلمين عندما مرض
الرسول مرض الموت إلى ابيها ابي بكر بدون علم الرسول ، وان علياً أولى بذلك من ابيها .
ولم تبرز عائشة أيام ابي بكر وعمر على مسرح السياسة . ولكن لما تولى عثمان ، وكانت
ليناً والأمور بأيدي قومه بني امية ، كانت تحرض علي قتله وتقول : « اقتلوا نعتلاً فقد كفر »

ثم قتل عثمان وكان من الذين استتركوا في تلك الجريمة أخوها محمد بن ابي بكر .
ولما بويح علي بالخلافة مكان عثمان ، وقفت عائشة في صف الذين يطالبون بدم عثمان .
ولا ريب في أن عائشة هي التي أثارت على الامام حرب الجمل ، فأفسدت بذلك خلافته السياسية
إفساداً كاملاً . من أجل ذلك كله ، لا نعجب من علي في نقيته على المرأة .
وهذه الأسباب كلها جعلت الامام علياً يحمل على النساء كلهن حملة شديدة ويتهمهن جميعهن
ومن يتبعهن . من ذلك أنه خطب بعد معركة الجمل فقال : « معاشر الناس إن النساء نواقص
الايان نواقص الحظوظ نواقص العقول . . . فاتقوا شرار النساء وكونوا من خيارهن على
حذر ، ولا تطيعوهن في المعروف حتى لا يطمعن في المنكر ، .
هذه بعض مظاهر فلسفة علي الاجتماعية . وما أوردت في هذه إلا نتفاً هي غيض من فيض
بما يحويه كتاب « نهج البلاغة » .

أما العناصر التي تضافرت على تكوين هذه الفلسفة فكثيرة : منها ما يعود إلى الدين الذي
كان علي أعرف الناس به ، ومنها ما يعود إلى عنصره العربي ، وذلك واضح لما نجد في فلسفته
من الدعوة إلى القناعة والصبر والشجاعة ، وغيرها من مميزات الخلق العربي .
ومنها ما يعود إلى حياة علي العائلية ، وما لاقاه من خصومة عائشة الأمر الذي مقت به
المرأة ، ولعل أثر بيئته كان أبعد هذه العناصر أثراً في فلسفته .
ومن كانت هذه مقدرته ، فلا عجب إن رغب فيه قوم ، وحسده قوم آخرون فأبغضوه ،
وغالى الفريقان ، حتى قال الشعبي : « أحبه قوم فكفروا في حبه ، وأبغضه قوم فكفروا في
بغضه » . تلك هي فلسفة علي بن ابي طالب الاجتماعية ، وتلك هي الطريق التي رسمها للحياة
المستقيمة الصالحة . فهلا اتخذ الشباب من عظامهم مثلاً وطبقوا قوانينهم الاخلاقية والاجتماعية
علمهم يخلقون ولو بعض الشيء حياة مثالية رفيعة !!!

عبد الرؤوف فضل الله

بيروت

المصادر :

- عبقرية الامام - العقاد .
- نهج البلاغة - فروخ .
- تاريخ الفلسفة العربية - للأب نعمة الله العنداري .